العرب
الجمعة 2021/10/01
السنة 44 العدد 12196

الأدب والفن والفلسفة هي الطريق إلى لمعان النفس

المغربي محمود عبدالغني: الأدب ظل يشكل درعا واقيا للتحليل النفسي

هناك اهتمامات عديدة بالموضوعات النفسية في الأعمال الأدبية، حيث ظهر اهتمام الأدباء والنقاد بالجوانب الخاصة بأنماط الشخصيات وسماتها ودوافعها وانفعالاتها وأفكارها وقيمها واهتماماتها وتفاعلاتها واتزانها واضطرابها وغيره، ما جعل من الأدب بدوره مثالا يستفيد منه علماء النفس، فصارت بينهما علاقة متبادلة مازالت مثار جدل إلى اليوم.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

ينطلق أستاذ الأدب بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط الشاعر والروائي محمود عبدالغني في كتابه "معجم تمهيدي لنظرية التحليل النفسي للأدب" مستهدفا غايتن، ومتوجها إلى جمهور مزدوج: للنقاد ولدارسي الأدب. حيث يقدم المعجم معارف ومفاهيم ومنهجيات ومراجع ومصادر تساعد على دراسة العمل الأدبي الذي يقع في خانة "الذات العميقة"، حسب تعبير بروست، أو "الكتاب المفتوح" حسب تعبير سيغموند فرويد.

لكن هذا الطريق المزدوج، وفقا لعبدالغني، سيتجاوز ازدواجيته وسرعان ما يبدأ في نسخ نفسه حتى يظهر في صور كثيرة، أحيانا محيرة. إنه يدخل، في اتصال مباشر، في اهتمامات كل من اللساني ودارس الكتابات المرجعية والشغوف بالأعمال الاسترجاعية والمؤرخ الأدبي ودارس التعبيرات اللاواعية. لكن في النهاية يبدأ هذا الفريق في الالتئام، ويهتم بأعضائه، في احترام تام للتخصصات الملتئمة، تحت قيادة رجلين عظيمين، كثيرا ما لعبا في خيال الناس منذ قرون، الأول يدعى "مصنّف المعاجم" والثاني اسمه سيغموند فرويد.

الكلمة والصمت

يرى عبدالغني أنه حين يبدأ مصنف المعجم العمل يتخذ وتيرة منتظمة، يتحول اللقاء بالمصطلحات إلى مناظرة للتخصصات.

ويضيف "إنه معجم، لكنه حكاية أيضا. على القارئ ألا يستغرب إن بدأ المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان يتبرم من محلل نفسي ألماني س. فرويد، يستند إلى أفكار لساني أو فقيه لغة ابن جلدته. فيعود الفرنسي للبحث عن لساني من أبناء جلدته، حالة ج. لاكان وإميل بنفينست، فيحرضه لمهاجمة المحلل النفسي الألماني من خلال تقويض نظرية اللغوي الألماني: يتجسد هذا النموذج في المواجهة غير المباشرة الساخنة بين جاك لاكان وفرويد، ويجد القارئ تفاصيلها في مادة كارل أبيل. لا مجال للاتفاق إذن في هذه الساحة الحمراء. جنسية مقابل جنسية. مدرسة مقابل مدرسة. ولسان في مواجهة لسان. إن تاريخ النظرية يتدفق في اللسان والأدب".

> **في المعجم نظريات كثيرة وأسماء أعلام ومراجع ومصادر يمكن للقارئ العودة إليها لتغذية ثقافته بهذا المجال**

ويشير في مدخله التمهيدي للمعجم، الصادر عن دار خطوط وظلال الأردنية، إلى أن المحلل النفسي يواجه دوما الصمت، اللاخطاب. إن لفظة "كلمة" في التحليل النفسي هي كلمة غريبة. وكما يؤكّد لاكان أن لفظة "كلمة" هي في صيغتها اللاتينية motus تعني عكس معناها: الصمت.

وهنا يستدعي ما قاله لافونتن "كلمة، تعني في الجوهر أنه ليس هناك إجابة"، وأن ليس هناك خطابا، على عكس ما نتوهم. إن وجود الكلمة يدفع إلى مواجهة الصمت. والصمت حسب لاكان هو بالضبط "الشيء الذي لا نتلفّظ حوله بأي كلمة".

كما يستحرض ميشيل أريفيه، في نفس المعنى اللاتيني، الصيغة التي وضعها أدولف ريبوتوا "الكلمة mot هي الموت mort بإسقاط حرف الراء". إذن، هل التحليل النفسي هو ضرب من الأدب؟ أم هو ضرب من تحليل الخطاب مثلما هو ضرب من تحليل الإنسان من خلال كلماته، صمته ولا خطابه؟ هذا ما يحاول عبدالغني إثباته من خلال هذا المعجم التمهيدي.

الأدب وعلم النفس

يوضح عبدالغني: جعلت الروائية وعالمة النفس سارة شيش من التحليل النفسي ضربا من الأدب. وقد استشهدت بكتابات أنطونينو فيرو، خصوصاً كتابه "التحليل النفسي بَعده أدبا وعلاجا" (2005). كما أن عالم النفس البريطاني ويلفريد بيون (1897 – 1979) وتلاميذه كانوا يؤكّدون أن التقرير النفسي الجيد لا يمكن أن يتحقق إلا بواسطة الخطاب غير المباشر الحر إن "سردية" المريض، تقول سارة شيش، ما كان سيقال من قبل بواسطة الأعراض.

وأكد أيضا المحلل النفسي الفرنسي بيار هنري كاستل أن التعبير الأدبي "السردي" للمريض هو الوحيد الكفيل بإسماع أصوات حيوات غير مسموعة. وهذه العملية لا تقتصر فقط على المحتوى السردي لما يحكيه المريض، لكن، على الطريقة، الأسلوب، النبرة، الجملة، التي بواسطتها يقدم المريض حياته.

ويقول المؤلف إن الأدب يقول ما تقوله الأعراض، وبجدارة أكثر. كان فرويد، في الغالب، يعد "الأدبي" طريقا رئيسة نحو اللاوعي، أو على الأصح نحو أعراض اللاوعي، و"عقدة أوديب" مثال على ذلك. لقد صاغت الأسطورة الإغريقية، في وقت مبكر، من خلال مسرحية "أوديب ملكا" لسوفوكليس، مفهوما أدبيا لتلك الطريق المؤدية إلى اللاوعي لا تقوم المعالجة المسرحية في شيء آخر سوى بالإفضاء، بأن أوديب نفسه هو قاتل لايوس، وأنه أيضا ولده منه ومن جوكاستا. إنها حقيقة مذهلة تلك التي أكدها سوفوكليس. إنها حقيقة ممهدة لحقائق كثيرة ظلت تتجدد، وظل الزمان يترجمها.

ويؤكد عبدالغني أن الأدب ظل يشكل درعا واقيا للتحليل النفسي، وظلّ هذا الآخر يتمسك به، ويطارده حتى يظهر له لمعان النفس. تلك مفاهيم تطورت منذ هوميروس إلى اليوم. مثلا أثبت جلّ الدارسين أن عوليس رجل مركّب ومتناقض .لذلك فهو منجم كلّ علة وتوجه عند الأدباء والمحللين النفسيين على حد السواء. هذا ما أثبته الكاتب الفرنسي سيلفين تيسون في روايته "صيف مع هوميروس" 2018. ومعنى ذلك أن كل شيء جديد تحت الشمس هو ملتقى طرق بين الأدب والنفس البشرية.

ويلفت إلى أن اللغة الأدبية حين توظف وضعيات التناظر، فما ذلك إلا من أجل تقديم في الكون منفصلة، لكن اللغة تجتهد لإبراز التشابه والتناغم بينها. وفي مقدمة تلك الأشياء الكونية الإنسان باعتباره لغزا، وعالما مركّبا ومتناقضا. في هذا السياق استمع بيار بايار لرنين فكر فرويد في الأدب، فأعاد إلى التداول مفهوم "أنا عميق" الوارد في الجزء الأخير من "البحث عن الزمن الضائع" لبروست، ويقابله أيضا "كتاب داخلي". إن "البحث عن الزمن الضائع" هو "أنا عميق"، وأيضا "كتاب داخلي" ضخم تتجول كلماته داخل أرجاء النفس البشرية العميقة.

ويضيف أن جاك لاكان ظل يردد أن "هدف التحليل النفسي ليس الشفاء"، بل إفساح المجال للتعبير عن الحقيقة. فبقدر ما يقترب التحليل النفسي من الطب، فإن له وشائج قوية بالفلسفة والأدب والفن. لذلك، إذا أردنا جرد الأعمال الأدبية والفلسفية والفنية التي رافقت التحليل النفسي ورافقها التحليل النفسي، فإننا سنعتبر كل الفلسفة وكل الأدب وكل الفن هو سعي لقول الحقيقة كما هدف إلى ذلك التحليل النفسي، دون أن ننسى مرافقة اللسانيات لمجال يفترض أنه علاج طبي. كما استعان فرويد باللساني الألماني هانس سبيربير، الذي ظل يستدعيه في العديد من الأبحاث، خصوصا الأبحاث التي أنجزها حول تعايش المعاني المتضادة في الأحلام. وقد امتدت أيضا إفادة سبيربير إلى مستوى دعم فكرة، ظل فرويد يعود إليها "الأصل المشترك للغة واللاوعي".

ويخلص إلى أن في المعجم نظريات كثيرة وأسماء أعلام ومراجع ومصادر يمكن للقارئ العودة إليها لتغذية ثقافته بهذا المجال الشاسع والممتد مثل الأفق. لقد انتفت فيه المجالات والتخصصات، واقتربت المدارس والتيارات، ضمن إطار مقارن، وتعايشت الفصول والقرون. فبدا كاتب القرون البعيدة عالما بكل شيء يقع بين السماء والأرض، أكثر مما يعرف علماء النفس في القرن الماضي.

عبر الأدب نكتشف أعماق اللاوعي

كتاب ضد هشاشة الذاكرة يحتفي بسيرة الموسيقار التونسي محمد التريكي

تونس – يرصد الكتاب الجماعي التونسي بعنوان "قراءات في سيرة محمد التريكي وأعماله الموسيقية" سيرة حياة فنان رائد في الموسيقى التونسية ويقدم أهم أعماله والحقبات التي عاشها.

وقد صدر الكتاب عن مركز الموسيقى العربية والمتوسطية «النجمة الزهراء» بالاشتراك مع منشورات «سوتيميدي»، وتم تصديره بكلمة من مديرة النجمة الزهراء سيمة صمود، فيما تولى تقديمه أنيس المؤدب، وتضمن مقالات بعنوان «محمد التريكي بين سلطة المشافهة وأمانة التدوين» لجلال الورتاني و"التحولات المشهدية الثقافية في تونس مطلع القرن الماضي ودورها في توجيه المسار الفني لمحمد التريكي" بقلم مكرم الأنصاري، كما كتب الهادي بن جعفر عن «دور محمد التريكي في نشأة المسرح الغنائي التونسي» وعاد أنيس القليبي إلى «تحليل أغنية زعمة يصافي الدهر لمحمد التريكي».

فنان ساهم في بناء الشخصية التونسية

أما محمد أمين القاسمي فقد اختار المساهمة في هذا المؤلف الجماعي بمقال حول «خصائص الأداء لدى محمد التريكي من خلال تقسيم حجاز يكاه» ويطلع القارئ أيضا على مقال لمحمد أنيس الحمادي بعنوان «محمد التريكي: حياته ومقاربة لعلاقة اللحن بالنص الشعري في أغنية يا محرمتها»، فيما يختتم هذا الكتاب القيّم بمقال يحمل إمضاء هشام البدراني يتطرق فيه إلى «حضور الموسيقى الشعبية وتأثيرها في أعمال محمد التريكي».

وجاء في بلاغ عن «النجمة الزهراء» أن هذا الكتاب الوارد في 180 صفحة، يلخص مسيرة التريكي الفنية في تعبير عن المشهد الموسيقي لتونس على امتداد كامل القرن الماضي بكل التحولات التي طرأت عليه، والمعارف الموسيقية النظرية والتطبيقية التي تراكمت خلاله، والتقنيات التي استعملت لتوثيق الموسيقى وتسجيلها وبثها، ومختلف الأنماط والقوالب الموسيقية وأساليب التلاحين التي تمّ تداولها.

وقد عاصر التريكي أهم القامات الفنية والأدبية التونسية في القرن الماضي، فعاصر أبرز أعلام الفكر والفن أمثال الطاهر الحداد وأبي القاسم الشابي وأحمد الوافي وجماعة تحت السور التونسية أمثال علي الدوعاجي وعبدالرزاق كرباكة والهادي العبيدي وبيرم التونسي ومحمد العربي وغيرهم. وهو ما يؤكده تقديم الناشر لهذا الإصدار.

وجاء في تقديم الناشر أن التريكي شاهد على عصره وفاعل فيه في الآن ذاته، فقد أصبغ على الثقافة الموسيقية للتونسيين بألوانه الذاتية ووَجْهَهَا طبْقا لرُؤَاهُ الجماليّة، وأثَّرَ في الذائقة العامة، وأسَّسَ لخطاب موسيقي وَقَعَ تبنيه رسميا وشكّلَ ما سيُعرِّفُهُ البَعْضُ "الهوية الموسيقية التونسية".

ولد محمد التريكي في مدينة تونس بحي باب الجزيرة سنة 1899، في أسرة مولعة بالغناء الصوفي (العيساوية)، وقد وُلع منذ صغره بالمالوف، وسجّل بالمدرسة الفرنسية بباب عليوة (المدرسة العلوية) وتعلم الموسيقى على أساس علمي، وكذلك الموسيقى النظرية والكمان. لكنه انقطع عن الدراسة وحصل على عمل في إدارة الشؤون المالية، مع مواصلته التعلّم الفني على أكبر الموسيقيين التونسيين الذين سبقوه، مثل كمال الخولاي ومحمد المغيربي والسيد شطا وغيرهم.

ولع التريكي بالفن دفعه إلى الاستقالة من عمله عام 1924، وقرر منذ تلك اللحظة أن يكرس نفسه للموسيقى كعازف كمان، قبل أن يلحن أول أغنية له وهي «محلاها المنقالة في ايدك» التي غنتها دليلة الطليانة، لتتوالى ألحانه لقامات الأغنية التونسية.

مسيرة طويلة مع الأدب والشعر والموسيقى كرست التريكي واحدا من أبرز وأهم الموسيقيين التونسيين وشاهدا على العصر بأتم ما في الكلمة من معنى، فقد عاش قرنا من الزمن، وترك رصيدا هائلا من الأعمال الموسيقية تعليما وترقيما وتلحينا وغناء.

أتقن العزف على آلة الكمان ودرس طريقة عزفها، كما درس المواد الموسيقية في إطار المعهد الرشيدي ومعاهد التربية والتعليم، حيث تتلمذ على يده العديد من الموسيقيين التونسيين، وأشرف على تدوين الموسيقى لنوبات «المالوف التونسي» كما لحن مجموعة من الأزجال والأغاني العتيقة و"الفوندوات"، ولحن أيضا الأغاني العاطفية والقصائد والموشحات بالإضافة إلى الأناشيد والموسيقى العسكرية، إلى جانب تلحينه لأوبريت المسرح كما وضع أول لحن للموسيقى التصويرية، لفيلم "مجنون القيروان" وهو أول فيلم تونسي صور قبل الاستقلال .

وكان الفنان على اطلاع هام على الموسيقى العربية والعالمية، بينما كان يعتبر الشيخ سيد درويش أحد رواد الموسيقى العربية، فهو كما كان يقول "نابغة وفنان موهوب وله إحساس مرهف وألحان في غاية الرقة والإبداع والإمتاع، وهو نابغة طور الموسيقى العربية وطعمها بقواعد غربية، لكنه حافظ على درجاتها ونغماتها، وقد شهدت الموسيقى العربية فترة انتقالية في حياته الفنية لم تشهدها من قبل".

وانطلاقا من الإيمان بأنه رغم كل الأدوار التي قام بها التريكي في المجال الموسيقي، والكمّ الزّاخر من الآثار الإبداعية التي خلّفها، ومساهمته في بناء «الشخصية التونسية»، فإنّه لم ينل حظّهُ من التّبجيل الذي يستحقه، ويأتي هذا الكتاب، وفق مركز الموسيقى العربية والمتوسطية، ليتجاوز هشاشة الذاكرة ويُرسّخَ لمكانة التريكي في المخيلة الجماعية للتونسيين ويعزز ذكره بصفته فنانا قدَّمَ الكثير للموسيقى المغاربية والعربية، وذلك بتبيين أهمية منجزاته المتعددة وتوثيقها، والكشف عن مميزات أعماله الفنية وتثمينها.

> **الكتاب يلخص مسيرة محمد التريكي الفنية في تعبير عن المشهد الموسيقي لتونس على امتداد كامل القرن الماضي**